الفصل الثاني

عذابات الحب

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ أن حل الإنسان خليفة على ظهر البسيطة وهب الله علاقة الرجل بالمرأة وعلاقتها به عناية خاصة؛ فقد شرع الله السنن والقوانين التى تنظم هذه العلاقة وتهذبها وتحدد مسارها فى الإطار اللائق المسموح به؛ حتى تتمكن هذه العلاقة من الاضطلاع بدورها الأزلى المنوط بها من تعمير الأرض وإشاعة الحياة بين أركان العالم.

ولعل أنقى هذه العلاقات علاقة الحب الصادق النقى باعتبارها تنطوى على عاطفة «إنسانية خالدة لا تخلو منها نفس بشرية»[1].

وهنا يجب التأكيد على أن هذه العلاقة ثابتة بجوهرها متغيرة بأعراضها؛ نظراً لكونها عرضة لعوامل شتى تتعاقب عليها قد تتدخل فى عملية دعم وتزكية تلك العاطفة، كما أنها قد تتناوب على قهرها ووأدها؛ ليتم فى النهاية حسم أمر تلك العاطفة، وليتبين مدى ما تتحلى به من قوة ومرونة فى آن معاً قد تستعصى على كل محاولات إجهاضها، وقد لا تستعصى فتزل وتسقط فى أعماق الضياع. وهنا يجد الحزن طريقه إلى قصائد الشعراء التى شهدت وأد الحب، والعمل على تغليفها بغلائل سوداوية موجعة.

أما الشاعر (فوزى العنتيل) فقد تعلق بالحب بعد أن عقد عليه آمالاً عراضاً فى أن يتمتع فى ظلاله بكل ما هو يرطب حياته، ويخلصه من قسوة الواقع الذى يحاصره دائماً بمفردات التكبيل والضياع:

«عيناك يا حبيبتى ... نجمان.. يضحكان
لقلبى المصفود ... فى سلاسل الزمان

لقلبى المشدود فى مراوح الهجير
يضرب فى صحرائه ... مضيع المصير
منقبا فى ليلها ... عن حبه الكبير

عيناك فيهما الدلال، والحنان
والهوى»[2]

(١) استشفاف الشعر - د/ يوسف حسن نوفل، ص٢٩.
(٢) الأعمال الكاملة - فوزى العنتيل - ج١ الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٥م، ص٧٦، ٧٧.

الحب إذن بالنسبة لهذا الشاعر يمثل الملجأ الحصين، والحصن المنيع الذى يحتمى به من قسوة الواقع، وضراوته. ومن ثم ألح الشاعر على استعطاف الحبيب واستحضاره:

«يا حبيبى..

تعذب الصمت.. فى روحى..

وجن الحنين.. فى شفتيا..!

ما علينا.. إذا حملنا هوانا

ووقفنا على الطريق.. ملياً..؟»

- «يا حبيبى..

على غصونك.. قلبى.. بلبلا..

ضارعاً إليك

فهيا..!»[1].

كما يتكرر أيضاً هذا الاستعطاف فى قصيدته (القطار العاشق)[2].

لكن إيمان الشاعر بحتمية الحب، وأهميته لم يكن شفيعاً كافياً له فى صيانة هذا الحب، والحفاظ عليه من الضياع؛ إذ سرعان ما تدخلت معوقات أدت إلى وأد هذا الحب. وهى معوقات يمكن أن تكون الحبيبة عنصراً من أهم عناصرها:

«كلمات لم أقلها- بعد- للموغل فى غابات روحى

للذى يقطف أزهار جروحى

ويغنى لعذابى.. والتياعى

وارتعاشات ينابيعى الخفيه

(١) المصدر السابق- ص٢٥٢، ٢٥٣

(٢) السابق- ص٢٥٩

تحت أشجار المساء العنبريه

وهى تهفو لحبيب مر من غير تحيه

كان يوماً.. ومضى..

فمضى دون وداع

كان جلاداً.. وكنا: أنا والحب ضحيه

ثم ماتت كلماتى لم أقلها..!!

.....»[1].

كما تلوح الحبيبة أيضاً فى قصيدة أخرى هى قصيدة (الرسائل المحترقة)؛ لتؤكد على دورها فى وأد هذا الحب، وتضييعه؛ يقول الشاعر فى تلك القصيدة:

«ورأيت وجهك.. من خلال الذكريات

عبر اللظى..

بادى الشحوب..

فى مأتم الحب الكبير..!

بالأمس وجهك، كان ممتقع العيون

وانهار فى قلبى الكسير

حبى الكبير..!»[2].

وإلى الآن لم يفصح الشاعر بعد عن الأسباب التى دفعت بالحبيبة إلى وأد هذا الحب الكبير إلى أن تأتى الأسطر الشعرية التالية؛ لتفصح فى صراحة تامة عن نظرة المحبوبة المادية المتعالية إلى هذا الشاعر المحب الفقير؛ مما أدى إلى فقدان هذا الحب، وانهياره بداخل الشاعر:

(١) السابق- ص١٠١.

(٢) الأعمال الكاملة فوزى العتيل- ص١٨١.

وهتفت فى يأس مرير

لا تحقرى مجد الفقير..!

لكننى أبصرت فى عينيك، زوبعة تثور

ورماد إعصار سجين...

وعلى الجفون..

غضب أسير..

غضب الغنى، على الفقير..!

- «ولويت وجهك، فى احتقار

فلعقت أحزانى الجريحة

ويدى.. تصلصل فى القيود..!»[1].

إن فقد هذا الحب الذى أحله الشاعر من نفسه تلك المكانة الأثيرة سيخلف لديه غربة روحية قاسية يعانى فيها الوحدة والقلق والتشرد، وتلقى به فى متاهات اليأس والقنوط. وهو ما عكسته هذه الهواجس التى راحت تتناوب على نفسه عشية فراق حبيبته.

وقد كشفت هذه الهواجس اللاذعة عن مدى تعلق الشاعر، وتمسكه بالحب، وكيف أن ضياعه سيترك فى قلبه جراحاً غائرة، حتى يبدو هذا الشاعر، وكأنه لن تكون لديه القدرة على تحمل الأعباء الفادحة التى سيخلفها هذا الفراق الرهيب للحب:

«غداً تذهبين..

ومات الصدى، فقلت لنفسى.. غداً نفترق..!

وجف ربيعى..

حتى الربيع، غداً.. لا أرى سحره المنعقق»

(١) السابق- ص١٨١، ١٨٢.

- «وأحسست لأن شتاء الحياة، تمدد فى قلبى المختنق..!

غداً، لا أراك

لأن شراعى، سيبحر خلف ضباب الأفق

وأمضى غداً.. مثل نسر شريد.. يشد جناحيه.. فوق الغسق

ليخفى أساه العميق المرير.. عن سخريات الزمان النزق

ويجمع، أشلاءه، المتعبات.. مخضبة، من جراح الشفق

ليدفن، فى عاصفات الرياح..

ما سال من دمه المنبثق..!»[1].

إن الشاعر يسترسل فى تعداد الآثار المدمرة التى سيخلفها إجهاض هذا الحب فى نفسه، وكأنه يستجدى من يشاركه أحزانه، ويخفف عنه.

وبالطبع لن تكون الحبيبة هى من تقوم بالعطف على الشاعر؛ لأن سياق القصيدة يشى بأن فراقها واقع لا محالة، وقد اتضح ذلك من خلال تحديد زمن هذا الفراق:

(غداً تذهبين)، (غداً نفترق)، (غداً لا أراك)

ثم من خلال حصر مخاطبته للمحبوبة فى تلك الجمل الثلاث فقط، وهى جمل قد بدا واضحاً أنه لم يأت فى إطارها أى استحضار أو نداء لذات المحبوبة اللهم إلا فى إطار (الذهاب والافتراق وعدم الرؤية)؛ وبذلك يكون الحب قد رحل من حياة الشاعر.

وهكذا يكون الشاعر قد غاص فى أعماق ذاته المنكسرة المتألمة وكأنه يتلمس جروحه، ويتحسس أوجاعه الدقيقة الغائرة التى سيخلفها فقد هذا الحب بعد أن اضطلع ضمير المتكلم (المفرد) بمهمة التعبير عن ذلك. وهو ما عكس التصاق فاجعة ضياع الحب بنفس الشاعر.

لذلك لم يكن من المستغرب مطلقاً على هذا الشعور المضنى الذى تولد لدى هذا

(١) السابق نفسه- ص١٩٩، ٢٠٠.

الشاعر أن ينبت بداخله أدغالاً ملؤها الحزن والأسى والغربة والتشرد والجوع العاطفى، لم يستطع منها فكاكاً بعد أن نمت واستطالت وتشعبت آثارها القاسية فى كل مناحى نفسه، فتركته نهباً لمقارنة قاسية بين زمن مضى سعد فيه الشاعر فى رحاب الحب، وبين زمن يعيشه الشاعر أفل فيه نجم هذا الحب:

«يا جنة الشوق..

دعانى الهوى . إلى رؤى أغصانك الحانيه

فجئت.. مسحور الخطا..

حالماً بالعطر.. فى أزهارك.. الغافيه

فلم أجد.. إلا ظلال الأسى.. ترعشها أحزانها القاسيه

عارية الآلام..

فى صمتها تشكو.. إلى أشجارها الذاويه..!

يا جنة الماضى..!

ألا عودة..؟ تهمو إليها غربتى النائيه

بعثر أيامى.. خريف النوى.. يا جنتى.. فى الظلمة العاتيه»[1].

ولكن الماضى لا يعود، ولن يعود إلى الحياة مرة أخرى. لذلك أدرك الشاعر أن رحيل هذا الحب وضياعه لن تكون له عودة، لذا سيطر عليه شعور العذاب والحزن:

«أمامى انتظارى.. والظلام.. وغربتى..

ونهفة أيامى..

ورعشة كوبى..

وحلفى.. غابات.. تفح صلالها

ورائى.. ليلى.. والأسى.. ونحيبى...

(١) المصدر السابق- ص٢٤٠

أنا التائه المذعور.. فى جوف قفرة، يموت ويحيا...

فوق كل كثيب..

أنا البلبل المصفود، بين ضلوعه، ضراعة مظلوم..

وحزن غريب..»[1].

وأما الشاعر (أحمد عبدالمعطى حجازى) فإنه لا يخفى شعوره الحاد بالأسى الذى تسبب عن تفلت الحب من بين يديه، والذى بدأ الشاعر فى قص حكايته معه منذ البداية:

«على المرآة بعض غبار

وفوق المخدع البالى، روائح نوم

ومصباح.. صغير النار

وكل ملامح الغرفة

كما كانت، مساء القبلة الأولى

وحتى الثوب، حتى الثوب»

- «وكان وداع

جمعت الليل فى سمتى،

ولفقت الوجوم الرحب فى صمتى،

وفى صوتى،

وقلت.. وداع!

وأقسم، لم أكن صادق

وكان خداع!

(١) السابق- ص٢٠٨.

ولكنى قرأت رواية عن شاعر عاشق

أذلته عشيقته، فقال.. وداع!

ولكن أنت صدقت!»[1].

إن هول حادثة ضياع الحب كان وراء تكرار الشاعر كلمة (وداع)، وكأنه نوع من جلد الذات، وتأنيبها على تفريطها فى هذا الحب المتوهج. وبذلك يكون الشاعر قد حمل نفسه المسئولية كاملة عن ضياع هذا الحب، والتهاون فى صيانته، و لحفاظ عليه. يتأكد ذلك من اختيار الشاعر للفعل (باع) وإسناده إلى نفسه، ثم من تبيان لثمن الذى حصله من وراء هذا البيع الذى تم نظير كلمة (وداع): «وبعت صديقتى بوداع». ويا له من ثمن زهيد! عكس ما لحق الصفقة من غبن، كما كشف عن قلة الخبرة لدى هذا الشاعر، فكان ضياع هذا الحب الثمين من بين يديه بعد أن عجز عن إعطائه حقه فى الرعاية. وهو ما جعل الشاعر نهباً للحسرة والألم بعد أن اكتوى بنيران عذابات الحب الذى ضاع من يديه، وهو الذى عرف قيمته وأهميته فى حياته من قبل:

«يا ويله من لم يحب

كل الزمان حول قلبه شتاء!»[2].

بيد أن هذا الشاعر حين يحمل نفسه مسئولية وأد الحب، وإجهاضه، فإن ذلك لا يعنى أنه يستثنى حبيبته تماماً من تحميلها قدراً من المسئولية:

نحن افترقنا.. هذه حكاية

لا شىء فى سردها

إلا الأسى

فلننسها فى عيد ميلادها

لكننا

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى- ص١٧، ١٨.

(٢) المصدر السابق- ص٣٨.

كنا اتفقنا أن تقول كلمة

أجعل من ردها

هديتي.. في عيد ميلادها!

وفرت الطفلة من وعدها

داست على عهدها

فلم أجد هديتي في عيد ميلادها

لكنها قد تذكر الماضي، وتبكي حبنا

في لحظة من لحظات سهدها»[1].

إن الشاعر هنا يتعلق ببعض أمل ما زال يداعب مخيلته في عودة هذا الحب المتفلت، ويتلمس مبادرة قد تؤدي إلى عودته. ومن ثم فهو ما زال ينتظر:

«أنا هنا، على الطريق يا حبيبي أنتظر

وفي فمي ابتسامة، تموت ثم تزدهر

العاشقون في الدجى الصافي ذراع في ذراع

وكلمة لكلمة، وبسمة بلا انقطاع

إلا ذراعي لم يزل يهتز، في ليل الضياع

وكلمتي، أخاف أن يمضي الصبا ولا تذاع»[2].

ولكن يبدو أن انتظار الشاعر لهذا الحب المفارق سيطول بل يبدو أنه انتظار يائس يتلهى به الشاعر عن صدمة الاعتراف بالحقيقة الفاجعة؛ بأنه في انتظار ما لا يجيء وما لا أمل له في لقائه؛ فقد رحل الحب مودعاً الشاعر. وهو وداع كان على غير موعد باللقاء. إلا في عالم النوم والأحلام؛ فقد زار الشاعر «طائر الغرام» الذي:

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق نفسه- ص١٠٣.

«دار على منازل الحى، ودار وانعطف

تابعته.. كان فؤادى يرتجف

حتى وقف».

-«قال.. رأتك سيدى، يا أيها السعيد

وابتسمت، فهل لمحت ثغرها الجميل يبتسم؟

قلت.. نعم!

قال.. أقول والكلام سر؟!

قلت.. تكلم، إننى وحيد

مالى صديق، غير هذه الكتب

قال.. انتظر غدا!!»[1].

ولكن هذا الغد المنتظر لم يأت بإشراقات الحب المأمول الذى ينتظره الشاعر بكل لهفة وتشوق، ولكنه أتى محملاً بمشاعر الوحدة والوحشة واليأس:

«أيتها المقاعد الصامته

ما زلت صامته!

ما زالت الكتب

تلاً على الرفوف، قاحلاً بلا زهور!

العالم الجميل فيها، كومة من السطور!

الليل فيها، ميت بلا شعور!

لكننا نقطعه بها

وعندما نملها، تأتى انطيور فى المنام

(١) السابق- ص٨٠، ٨١.

obeikandl.com

هامسة.. غداً، غدا!

لكن صبحاً ينقضى، ويقبل المساء

ولا ندى

ولا لقاء!!»[1].

إن إجهاض الحب فى حياة هذا الشاعر قد خلف لديه ندوباً غائرة، وآلاماً مضنية لم يستطع أن يتحايل عليها كثيراً؛ إذ سرعان ما اعترف بهزيمته ويأسه وانكساره بعد أن استوطنه الشعور بالحزن؛ عندما أيقن أن موت الحب ورحيله من عالمه كان رحيلاً إلى غير عودة ينتظرها:

«ما الذى أبقت لنا الأيام، حتى نتجلد

وكلانا يخبر الآخر أن الحب مات!

أى ساعات سرور،

نستعيد الآن ذكراها، فنصمد

لرياح اليأس والذل التى هبت علينا

فى هدوء الكلمات!»

-«من ترانا يبدأ القول، وينهى الجلسة المختنقه

من ترى يعلن.. أن الوقت فات!»[2].

وأما الشاعر (أمل دنقل) فقد كانت دعوته للحب ملحة قصد بها ضرورة استدعاء هذا الحب، وسرعة موافاته؛ ليتمكن به مَنَ القضاء على حالات الفقد الرهيب التى يعانيها طالما كان هذا الحب غائباً عن دنياه:

«يا وجهها الحلوا

(١) السابق- ص٨٢، ٨٣.

(٢) السابق- ص٢٨٣، ٢٨٤.

أمطر، فإنى مجدب السلوى

ما زلت لا أقوى

أن أنقل الخصوا

إن فاتنى سندك

يا وجهها الحلوا

ما زلت أفتقدك

ما زلت أفتقدك»[1].

تبين إذن ما يعقده الشاعر على عودة هذا الحب من آمال عراض. وهو ما يؤكد أن أى إعاقة تقف فى طريق إشباع عاطفة الحب، وتؤدى إلى إجهاضها سيجعل الشاعر عرضة لمشاعر طاحنة. وهو الأمر.الذى تحقق مع الشاعر (أمل دنقل). وإذا كان الشاعر (فوزى العنتيل) قد ألقى بمسئولية وأد الحب على حبيبته، فالأمر كان قريباً من ذلك مع الشاعر (أمل دنقل) ولكن بإضافة جديدة؛ حيث نلمح شخصية أخرى يشركها الشاعر مع الحبيبة فى مسئولية إجهاض الحب. وهى صورة لشخصية الآخر المنافس الذى يمتلك المقدرة المالية التى يستطيع بها إغراء المحبوبة، وتحفيزها على هجر المحب (الشاعر الفقير) الذى لا يملك إلا المبادئ:

« «كان يا ما كان»

أنه كان فتى

لم يكن يملك إلا.. مبدأه

وفتاة ذات ثغر يشتهى قبلة الشمس

ليروى ظمأه

خفق الحب بها، فاستسلمت

(١) الأعمال الكاملة- أمل دنقل- ص٣٣.

وسرى الحب به، فاستمرأه»

–« صعدا

سلمة..

سلمة..

فى قصور الأمنيات المنشأه

لم تكن تملك إلا طهرها

لم يكن يملك إلا مبدأه»[1].

ولكن هذا المبدأ ليس «إلا كلمات مطفأة» لا تستطيع، ولا تقوى على مقارعة سطوة المال البراق الذى امتلكه الشخص الآخر المنافس للشاعر، والذى استطاع به أن يغرى حبيبة الشاعر، ويشتريها صاغرة:

ذات يوم

كان أن شاهدها

من له أن يشترى نصف امرأه

حينما أومأ لها مبتسماً

فأشاحت عنه

كالمستهزئه

اشتراها فى الدجَى

صاغرة

زفت السبعة عشر.. للمئه

لم يكن شاعرها فارسها

(١) السابق– ص١٥– ١٧.

لم يكن يملك إلا..

التهنئه

لم يكن يملك إلا مبدأه

ليس إلا..

كلمات مطفأه»[1].

كما يتكرر ورود صورة هذا الشخص الآخر الذى يتدخل؛ ليسرق الحب من حياة الشاعر فى قصائد أخرىَ للشاعر[2]، حتى يبدو أن إلحاح الشاعر ذلك يمثل اعترافاً ضمنياً وإقراراً تاماً بهزيمته وعجزه أمام هذا الآخر المنافس الذى بدا- بدوره- مصراً على ملاحقة الشاعر، ووأد حبه بداخله بقصد كان ذلك منه أم بغير قصد.

ما يبدو أن صورة هذا الآخر قد سيطرت على مخيلة الشاعر، وتمكنت من نفسه؛ حتى إنها لتلوح له فى أكثر المواقف الحميمية التى تتخللها أحاديث ذاتية خاصة جداً:

«حبيبتى فى لحظة الظلام، لحظة التوهج العذبة

تصبح بين ساعدى جثة رطبة!

ينكسر الشوق بداخلى، وتخفت الرغبة

أموء فوق خدها

أضرع فوق نهدها

أود لو أنفذ فى مسام جلدها

لكن.. يظل بيننا الزجاج.. والغياب.. والغربة!.

.....

وذات ليلة، تكسرت ما بيننا حواجز الرهبة

(١) المصدر السابق- ص١٧، ١٨.

(٢) انظر المصدر السابق- ص٤٦، ٥١، ٥٢، ٥٣.

فاحتضنتنى.. بينما نحن نغوص فى قرارة التربة

تبعثرت فى رأسها شرائح الصورة والنجوم

واختلطت فى قلبها الأزمنة الهشيم

لكنها وهي تناجينى

سمعتها تناديني

باسم حبيبها الذى قد حطم اللعبة

مخلفاً فى قلبها.. ندبة!!»[1].

هكذا ارتسمت صورة إجهاض الحب عند هذا الشاعر فى كثير من الأحيان فى شكل هذا الآخر الذى انتمى إلى وقائع آنية معاشة امتلك فيها المال الذى مكنه من اشتراء حبيبة الشاعر، كما انتمى كذلك هذا الآخر إلى عوالم غابرة وقفت دائماً فى صورة الحائل الذى منع الحبيبة عن المضى قدماً فى محبة الشاعر، والإخلاص له.

ولكن على حين يشرك الشاعر هذا الآخر مع حبيبته فى مسئولية وأد حبه، وإجهاضه- فإننا فى قصائد أخرى نجد الشاعر ينحى هذا الآخر جانباً؛ ليتشارك هو مع حبيبته، ويتحمل معها مسئولية إضاعة هذا الحب. نجد ذلك فى قصيدته «العار الذى نتقيه»[2]. وكذلك فى قصيدته «الملهى الصغير»[3].

ولكن محاور إعاقة الحب لم تقف دائماً بهذا الشاعر عند تلك الحدود الشخصية، ولكنها تخطتها إلى قوى قدرية خارجية تتدخل لتئد الحب، هكذا وكأنه قد كتب عليه ذلك الموت!:

«قالت: سأنزل

قلت: يا معبودتى لا تنزلى لى

(١) السابق- ص١٤١، ١٤٢.

(٢) السابق- ص٥٥.

(٣) السابق- ص٧٥.

قالت: سأنزل

قلت: خطوك منته فى المستحيل

ما نحن ملتقيان

رغم توحد الأمل النبيل

نزلت تدق على السكون»

-«وبكى العناق

ولم أجد إلا الصدى

إلا الصدى»[1].

هكذا تكون صور إعاقة عاطفة الحب قد تعددت عند الشاعر أمى دنقل؛ فمنها ما رجع إلى الحبيبة والآخر المنافس للشاعر، ومنها ما رجع إلى الحبيبة و لشاعر، ومنها ما رجع إلى قوى قدرية خارجة عن أى إرادة أو فعل بشرى. ولكن المهم فى النهاية أن الحب قد سقط، وقد سبب سقوطه صدى مدوياً؛ لأنه كان يعى فى قرارة نفسه أن هذا الحب الذى رحل من حياته لن يعود إليه ثانية. وليس أدل على ذلك من أن الشاعر يعد هذا الحب كان مجرد «حلم، وقد عبر!»:

«وترحل الطيور الزرق

بلا عنوان

تسأل عن هوانا

تسأل عما كان

.. ما كان يا حبيبى

حلم، وقد عبر!

وينزل المطر

(١) السابق- ص٤٤.

ويرحل المطر

وينزل المطر

ويرحل المطر

والقلب يا حبيبى

ما زال ينتظر»[1].

وإذا كان الشاعر (أحمد عبدالمعطى حجازى) قد احتال على هذا الانتظار الممل اليائس من خلال غوصه فى عالم النوم والأحلام التى يلتقى فيها بمبعوث حبيبته (الطائر الأخضر الجميل)، فإن الشاعر (أمل دنقل) يتحايل هو الآخر على هذا الانتظار المحكوم سلفاً بعدم جدواه، ويحاول الخلاص من أعباء هذا الفقد الفادحة التى يعانيها، وذلك من خلال التعلق بصورة واقعية تماماً لا تنتمى إلى عالم الخيال بصلة. وهى صورة فتاة تشبه حبيبته:

«انتظرى!

ما اسمك؟

يا ذات العيون الخضر والشعر الثرى

أشبهت فى تصورى

(بوجهك المدور)

حبيبة أذكرها.. أكثر من تذكرى

يا صورة لها على المرآة، لم تنكسر»[2].

ثم يشرع أكثر فى التلهى عن هذا الإحساس الساحق الفظيع من خلال بث تلك الشبيهة آلامه وأحزانه المضنية:

(١) الأعمال الكاملة أمل دنقل- ص٢٢، ٢٣.

(٢) السابق- ص٦٧.

«يا ظل صيف أخضر

تصورى

كم أشهر وأشهر

مرت ولسنا نلتقى

مرت.. ولم نخضوضر

الماس فى مناجمى

مشوه التبلور

والذكريات فى دمى

عاصفة التحرر

كرقصة نارية من فتيات الغجر»[1].

لكن الخطاب هنا قابل لأن يكون موجها إلى الحبيبة ذاتها، وليس إلى شبيهتها كما يبدو فى الظاهر؛ وبذلك يكون الشاعر قد لجأ هو الآخر إلى عالم الخيال الذى يمكنه من استحضار حبيبته الغائبه، وبثها وجده وشكواه.

الملاحظ أنه حتى فى أعمق لحظات الخيال الحالم لم يستطع الشاعر أن يتخلص من آلام الذكريات التى خلفها إجهاض الحب فى نفسه. لذلك يعود الشاعر إلى الواقع فى محاولة يائسة أخرى؛ للعثور على حبيبته الضائعة، وذلك من خلال رصده الدقيق لعنوان حبيبته التى تسكن:

«المنزل الثالث بعد المنحنى

الطابق الأخير»[2].

ولكن هذا الشاعر الذى خاب أمله فى العثور على حبيبته من خلال افتعال شبيهة

(١) السابق- ص٦٨.

(٢) السابق- ص١٤٣.

لها قد خاب أمله هنا أيضاً فى العثور عليها بعد أن دق على جرس منزلها؛ ليدرك أنها تركت المكان إلى غير عودة:

«بطاقة صغيرة كانت هنا

وخيط ضوء كان من خلال بابها ينير!

الطابق الأخير.

الوحشة السوداء فى الأعصاب تنغرس

يدى على الجرس:

سدى.. سدى!!

تراجعت فى أذنى رحلة الصدى

واساقط الرماد من لفافتى!

كانت هنا حبيبتى»[1].

إن صيغة (كانت هنا حبيبتى) لا تستدعى رناتها اليائسة غير صياغة (لم تعد حبيبتى هنا):

«الليل عند المنتصف

يا سائق السيارة العجوز قف

المنزل الثالث بعد المنحنى.

لكنها يا صاحبى العجوز.. لم تعد هنا!»[2].

إننا نلمح فى تلك القصيدة ملامح قصصية واضحة؛ حيث نجد المكان المتمثل فى قول الشاعر: «المنزل الثالث بعد المنحنى، الطابق الأخير».

كما نلمح كذلك عنصر الزمان فى (الليل عند المنتصف).

(١) السابق- ص١٤٣.

(٢) السابق- ص١٤٥.

كما نعثر كذلك على الشخصية الثانوية التى يمثلها (سائق السيارة العجوز).

كما نجد الإلمام ببعض التفاصيل النفسية «لشخصية البطل» (الوحشة السوداء فى الأعصاب تنغرس).

كما يمكن أن نعثر عى شخصية البطولة التى كانت بالطبع من نصيب الشاعر حاكى القصة وراويها الذى أمل فى نهاية قصيدته حضوراً فعلياً لشخصيته الرئيسة التى قام من أجلها برحلته، ودارت حولها معظم القصيدة فشغلت فضاء النص، وهى شخصية الحبيبة. ولكن هذا الحضور لم يتحقق فعلياً أو صورياً؛ فقد قامت صيغة: (لم تعد هنا) بالقضاء التام على أىّ أمل فى اللقاء على الرغم من بحث الشاعر، ولهائه الدائم وراء أى مكان يمكن أن يحصل فيه على هذا اللقاء. وهو ما أوقع الشاعر فى غيابات مشاعر طاحنة لم يستطع منها فكاكاً أو خلاصاً:

«هأنذا..

يد تساندت على الجدار

وخطوة تهبط للقرار»[1].

ويخاطب الشاعر سائق السيارة العجوز بتلك الروح الانهزامية البائسة، فيقول له:

-«امض هناك حيث لا مكان

حيث البيوت دونما عنوان

أوغل بنا فى رحلة السراب»[2].

أما الشاعر د(كمال نشأت) فقد عصفت به فاجعة تحطم حبه وفاجأت مخيلته بصورة أذهلته، وهو ما جعله غير معنى بتبيان الأسباب التى أدت إلى إعاقة الحب وإجهاضه بقدر ما كان معنياً برصد الآثار التى خلفها إجهاض الحب فى نفسه:

«يا واحة العمر.. عمرى يوم ألقاك ... ويوم يحنو على وكرى جناحاك

ما زلت أحمل أيامى معذبة ... كأنها دمعة فى عين سفاك

(١) السابق- ص١٤٤.

(٢) السابق- ص١٤٥، ١٤٦.

أعيش كالطائر المفزوع ما وقعت عيناه إلا على جدب وأشواك
أقصى أمانيه أن يلقى بغربته على يديك وأن ترعاه عيناك
وأن تهدهد كفاك مواجعه فهل ستحنو عليه اليوم كفاك»[1]

إن هذا الاستفهام يشير إلى رحيل الحب من حياة الشاعر تاركاً إياه نهباً لذكرياته التى تكاد تقضى عليه وتفترسه:

«لست أنسى كل ما مر بنا يا أختى روحى
يا ربيعاً أنبت الفرح على جدب سفوحى
تاركاً خلف فؤادى ذكر الأمس الصبوح
باعثاً فى حاضرى اللهاف آهات الذبيح
لست أنسى.. لست أنسى.. قصة الحب الطموح
رقدت بين حنايانا.. رؤى فجر جريح»[2].

إن الشاعر فى تلك القصيدة يكرر صيغة (لست أنسى) ثمان مرات؛ وهو الأمر الذى يعنى شدة تعلق الشاعر وتشبثه بذكريات هذا الحب الراحل، وهى ذكريات قد تعددت مفرداتها وترددت ملامحها بعد أن لازمت الشاعر فى مواضع أخرى من شعره:

«وعدت إليه
إلى بيتنا.. أرتمى فى يديه
ففى كل ركن به قطعة
من العمر ولت هناء لديه
وقلبى الوحيد
يسائل عنك الصباح الجديد

(١) الأعمال الشعرية- كمال نشأت - ٢/ ٢٨٧، ٢٨٨.
(٢) السابق - ص١٤٥، ١٤٦.

ويسمس فى غرفة الذكريات

طيوف ليالى الغرام الشهيد

بكاء الرياح

ينادى.. فيرعش فى اجتاح

وينمى شجون الفؤاد السجين

فأمشى غريب الخطى والجراح

ألا ترجعين؟

نداء أردده كل حين

فأسمع فى عمق روحى صدى

جريحاً يئن «ألا ترجعين؟»[1].

ولكن ماذا يفيد تكرار هذا التمنى المبطن بتلك الرغبة العارمة الملحة فى عودة الحبيبة بعد أن ظل هذا الأمل فى رجوع الحبيبة يتبخر شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً:

«مشيت الشوارع

عينى على شرفات البيوت

وفى لهفتى أمل لا يموت

وكيف أراك

وهذى البيوت الكثيره

مثل همومى اكسيره

تغلق عند المساء المدينة أبوابها

وأغلقت قلبى على وجهك الأريحى

(١) السابق – ص٢٨٥، ٢٨٦.

تغلق عند المساء المدينة أبوابها

تغلق عند المساء المدينه

تغلق عند المساء

تغلق..»[1].

لقد اتضح تماماً أنه على الرغم من تمسك الشاعر وتشبثه بذكريات حبه ورغبته العارمة فى بعثها واستردادها من جديد إلا إنه كان يدرك فى قرارة نفسه أن حبه قد رحل وأن رحيله سيكون بغير عودة؛ ولذلك فإن شدة تعلق الشاعر بتلك الذكريات وطول معايشته لها سيكون أثره عليه ساحقاً وفظيعاً؛ إذ إن طول المعايشة والاستغراق فى عالم الماضى بذكرياته الحالمة هو نوع من التحايل لرفض الواقع الذى جرده من هذا الحب، ولكن حتماً سيطغى الواقع على الحلم ليستفيق الشاعر من ذكريات حبه الغارب على عذابات واقعية ماثلة متجددة:

«سألت عنك العبير
والليل.. والذكريات

وما لقيت الجواب

فسرت فوق الهضاب أقول فى كل باب
يا من رأيت الضياء ينام فوق الورود
لقد رأيت الحبيب فهل تدل الغريب؟
سألت عنك الصباح والنهر.. والأمسيات

وما لقيت الجواب

فسرت طيف اغتراب وعدت من كل باب
أجر يأس الوعود ودمع قلب طعين
فما درى بالطريق إليك.. روح حزين
سألت عنك العبير والليل.. والذكريات

(١) السابق: ١/ ١٦٤.

ومـــــــــــا لقيـــــــــــت الجـــــــــــواب»[1]

إنه إذن نفى قاطع لأى أمل فى العثور على تلك الحبيبة وهو نفى يدعم بكل قوة وزخم مشاعر القهر والكبت التى أطلت على عالم الشاعر وسيطرت عليه بصورة ستحد من الاستغراق مجدداً فى تلك الذكريات الغاربة:

«نام المساء.. وها أنا وحدى أسامر لهفتى
مترقباً فى غرفتى أصداء خطو حبيبتى
ومشاعرى نبع يقيده جمود الصخرة
وخواطرى أرجوحة حيرى تعذب يقظتى
تهب الظنون فينطفى نجم ينور مهجتى
ويلفنى ليل.. وتغمرنى ثلوج كآبتى
وتعود من كهف الشعور.. من المهاوى غيرتى
تروى ملاحم حبنا المخضوب.. تروى قصتى
لليل.. للجدران.. للباب السئوم.. لوحدتى
أنا فى دجى الأمل المعذب فى انتظار الجنة
كاب.. تشردنى الظنون.. ملفع بالحسرة
متزقب.. متوفز الأعصاب.. أشرب لوعتى»
- «أشكو فراغاً جائعاً يقتات حلم شبيبتى
ودجى يجر على دمى أفراح فجر ميت
ورؤى - كأحزان العبيد - تنهدت بسريرتى
وتوثباً يحبو بقلبى بارداً كالدمية

(١) السابق ٢/ ١٠٤، ١٠٥.

وتعلة كم صاغها قلب أسير تعلة

فتغربى عنها وساد من أفاعى وحشتى»[1].

هكذا يكون الشاعر قد أعلن فى صراحة تامة عن شعوره الحاد بالضعف والهوان أمام عذاباته التى راحت تجتاح كيانه بعد أن لفت حياته وملأتها بمفردات الأسى ، النواح والفراغ والضجر:

«بالأمس نوح المطر

وكان صمت وضجر

فى الغرفة البكماء

لا ضحكة نجلاء

لا همسة الوتر

إلا زجاج النافذه

ونقرة المطر

والشارع العريض

يلمع من بعيد

والبرد يرعش الحجر»

-«بالأمس نوحت دموع

وكان صمت وضجر

وكنت فى المساء

والمطر

على زجاج النافذة

(١) السابق - ص ٣٣٣- ٣٣٥.

obeikandl.com

ينغم الأسى

وينسج الحنين

لدفء مقلتيك

لكنه المطر

والليل.. والحنين.. والضجر

تجمعت مساء

ونقرت في القلب.. والزجاج.. والشجر»[1].

وأما الشاعر (حسن توفيق) فقد كثر تعلقه بأهداب هذا الحب الذى كان يتقوى به ويحتمى بركنه؛ ليتخلص من قسوة واقعه المعاش، ويتمثل ذلك في معظم قصائد ديوانه (وجهها قصيدة لا تنتهى) يتضح ذلك من إحدى قصائده التى تحمل عنوان الديوان:

«تأتين فى زمن ضنين

تتفتحين.. وتشرقين

يتماوج الإيقاع فى خطواتك المتألقه

فيذيبنى.. ويحرك الأوتار فى روحى التى تصغى ـه متشوقه

فإذا بعدت- ولو قليلاً- فالرعود تحاصر الأمل المرفرف فى كيانى

تلقيه فى قفص الضياع معذبا متململا

ويعود قلبى صامتا مستغرقا فيما أعانى

ما بين يأس من لقاء، وانتظار أن يزيح الفجر ليلا معولاً»

«- تأتين فى زمن ضنين

تتفتحين.. وتشرقين

(١) السابق - ص٢٩٥- ٢٩٧.

كى تؤنسى بالصفو أيامى التى احترقت على جمر السعير

وأراك أعطيت الكثير

ولم أقدم غير قلبى منشداً لك أغنيات الشوق تجتاح الليالى

المعولات الجامحه

-أعطيتنى حلما.. تفتح فى دمى.. وردا بهى الروح.. حلو الرائحه

وكأنه أنفاس عاشقة تفيض محبة وتشع سحراً لا يغيب

أعطيتنى الدنيا التى أهفو لها رغم التعثر بالصخور الجارحه

أعطيتنى الدنيا التى أحيت صفائى بعد تكرار الوجوه المالحه»[1].

ولكن على ما يبدو أن هذا الحب العزيز الغالى الذى ملأ حياة الشاعر قد رحل من عالمه على الرغم من كل ما أولاه الشاعر لهذا الحب من صيانة واهتمام، يؤكد ذلك هذا التساؤل المضنى الذى صدر عن الشاعر:

«وأين هو الحب الذى كان ينسينا صحارى مآسينا

فها نحن نحيا يا رفيقة أيامى ولكن بلا حب تفيض به لقيا

فكيف نغنى إذ أتى الليل واشتقنا لبعض أغانينا؟!»[2].

هكذا تدل تلك التساؤلات على ضياع الحب وغيابه من حياة هذا الشاعر، ولكن المثير للانتباه أن هذا الشاعر قد أشار فى أكثر من موضع من شعره إلى عدم إدراكه أو تخيله حجم العذاب وأحاسيس الفقد التى سيعانيها بعد غياب هذا الحب، وتفلته من بين يديه:

«فمنذ افترقنا حسبت بأنى سأشرد يوما

وبعد الشرود أعود لحالى

(١) حسن توفيق- الأعمال الكاملة- الهيئة المصرية العمة للكتاب- سنة ٢٠٠٣- ص١٦٠- ١٦٣.

(٢) السابق- ص٤٦٧.

فأغمض عينى وتنعم روحى براحة بالى

وهتف كان غرامك وهما

وكننى يا أميرة شعرى عرفت حرائق ليل السهاد

وأن غرامك داء نبيل تغلغل بين خلايا دمى

وطاردنى فى زحام الوجوه بغير اتئاد

وألقى ظلال الأسى المعتم»[1].

وقريباً من هذا المعنى ما نجده فى قصيدة أخرى (أصداء اللقيا الأخيرة) التى يقول فيها:

«من أين جئت أيا نعم

فأهجت فى الذكريات

وأعدتنى متلهفا أتذكر اللقيا الأخيره

لقيا الأسى.. لقيا الوداع

يوم انطوت أحلامنا وتذوقت روحى الكسيره

طعم الأسى.. طعم الوداع

لم نبتسم.. لكننى أظهرت ما فى طاقتى من كبرياء

أظهرت أنى صامد

وكأن قلبى لم يذق طعم البكاء

أبدا.. فلا يتنهد»

-«ووجمت فى الليل العميق

وذهبت فاختنق السلام، فلا سلام، ولا ارتياح

(١) السابق- ص٣٥٦.

ويقيت وحدى فى الطريق

والقلب تعوى فى جوانحه الجراح»[1].

ومن ثم نجد الشاعر يناجى حبيبته مبيناً قيمتها لديه مستعطفاً إياها لتعود إليه ولا تقضى على ما بينهما من أواصر، وقد تعددت الصيغ التى عبر بها الشاعر عن هذا المعنى بين أمر ونهى.

وتتكرر صيغة الأمر (تعالى) فى قصيدة للشاعر- بعد أن عنون لها بتلك الكلمة وكررها فى بداية كل مقطع-:

«تعالى خذينى ومدى اليدا

لأنى حلمت بأنى غريق

يضيع ندائى وما من صدى

ويجذب روحى القرار العميق

تعالى خذينى فإنى غريب

أحس كأن منای كسيحه

وأن الفراغ بقلبى نحيب

وفيه رماد قفار فسيحه

تعالى خذينى لأنسى الكدر

وأنسى حياتى وأنسى البشر»...الخ[2].

كما تتكرر أيضاً صيغة الأمر فى قصيدة أخرى ولكن الشاعر يستخدم لها كلمة (أطلى):

«أطلى على عالمى الأخرس

(١) السابق - ص٦٢٥- ٦٢٧.

(٢) السابق- ص٦٦٦.

لتشدو العصافير في صبحه الشاحب الراكد

أطلي.. أطلي.. فإني مللت الوقوف على شاطئ يائس

أنوح على حبي الخامد

أطلي فإني نشرت الشراع

تجاه شطوط الهوى والرؤى الساحره

سنرحل نحن... سنطوي الدموع

سننسى المنى العاثره»[1].

«أطلي علي.. فصوتك معزوفة للحنان

تبينتها في ليالي الضياع تهدهد نفسي

وتنفض عني كآبة هذا الزمان

فتشرق بعد الكآبة شمسي»[2].

كما يلوح النهي أيضاً مشفوعاً بالتوسل والاستعطاف:

«لا تدعيني مفرداً

ولنبق هاهنا معا فالخوف كم يقهرني حين أكون مبعدا

حين أكون مبعدا.. رائحة الخوف تفوح والمساء يقبل

محملا بالسحب الجوفاء.. والوهم.. وما لا أشتهيه»[3].

بل إن الأمر والنهي قد يتجاوران تماماً في قول الشاعر:

«بدونك أنت ترفرف روحي وحيده

يضيق الوجود بما في كياني

(١) السابق- ص٦٩٠.

(٢) السابق- ص٦٩٢.

(٣) السابق- ص٥٣١.

ظلام، وضيق، ودنيا بليده

بدونك أنت أظل أعانى

وتذبل حتى الأمنيات

فلا تتركينى أعانق بؤسى

تعالى نرفرف فى أفق دنيا طليقه

لأنسى ضياعى ويأسى»[1].

وقد يلجأ الشاعر فى إطار هذا الاستعطاف والتوسل إلى تذكير المحبوبة بما كان بينهما من ذكريات علها تشعل حنين عودتها إليه:

«يا أنت.. حين تذكرين شمسك المنيره

يا أنت.. حين تذكرين لمسة الحنان

ودفقة الأشواق فى عيوننا الغريره

مدى له اليدين

وقتئذ يحس بالأمان

فساعة الشعور بالشقاء

يطل من عيونك الرقيقه

ماض من البلابل الرخيمة الغناء

فيمسح الأحزان.. يطفى اللهيب

ويخلق الحديقه

فى عمره الجديب»[2].

(١) السابق- ص٦١٠.

(٢) السابق- ص٦٦٣، ٦٦٤.

وتبلغ درجة تمسك الشاعر بهذا الحب وتشبثه به إلى تمنيه أن تنتهى حياته وهو إلى جوار المحبوب ينعم بقربه:

«ليت أيام حياتى

تنقضى بالقرب من هذا العبير الجامح

حيث تزهو أغنيتى

ويعود الأمل الحلو لقلبى النائح»[1].

ويتكرر هذا المعنى فى موضع آخر للشاعر حيث يقدم هذا التوسل والاستعطاف إلى حبيبته بصورة جنحت به فى النهاية إلى الوقوف على حافة ذلك الترجى المضنى:

«فإذا غبت.. تطل الحسرات

تصبح روحى صحراء بها حمم مصهوره

تهرب منها أحلى النسمات

تعتم فيها كل الآفاق، ولا تسمع إلا الصرخات

هذا ما يحدث حين تغيبين.. فمن يهمس بصباح الخير

يا غاليتى.. حين تغيبين؟

ولهذا أرجوك إذا غبت.. ولو لحظات

أن تضعى- قبل غيابك- فى قلبى سكين

حتى أنسى العالم وأموت.. ووجهك فى قلبى مرسوم بالسكين»[2].

إلى هذا الحد وصل تمسك الشاعر وتشبثه بهذا الحب المفقود وقد اتضح ذلك من إلحاح الشاعر على صيغ (تعالى) و(أطل) و(لا تدعينى) و(لا تتركينى)، كما اتضح ذلك أيضاً من تمنى الموت وهو فى أحضان هذا الحب.

(١) السابق- ص٦٩٧.

(٢) السابق- ص٢٨٤، ٢٨٥.

هذه الصيغ تترابط بخيط شعورى واحد لتعلن عن مدى حرص الشاعر على هذا الحب، وعلى مدى تعلقه به كمخلص من هذا الواقع الذى يعانى فيه الشاعر مشاعر موحشة قاسية تكاد تقتلعه من كيانه، وهو ما أسلم الشاعر إلى تلك الوساوس والأسئلة المتوجسة:

«ماذا لو أنى ضيعتك؟

يسقط قلبى فى هاوية الأوهام بلا شفقه

ماذا لو أنى ضيعتك؟

تتجمع فى الليل القاسى صفحات الماضى المحترقه

تتشكل فى هيئة أفعى تلتف على روحى القلقه

ماذا لو أنى ضيعتك؟

وقتئذ لن أتمنى إلا أن يجرف عمرى الطوفان

أقسم بالحب وبالأحزان»[1].

ولكن بعد كل هذا الاستعطاف والتوسل والاهتمام الذى أولاه هذا الحب، هل رق الحبيب واستجاب لنداءات هذا الشاعر العاشق وضراعاته؟

ولكن ثبت أن المحبوب لم يستجب لضراعات هذا الشاعر وتوسلاته، وتمادى فى تجاهله والابتعاد عنه تاركاً إياه نهباً لمشاعر الوحدة والحسرة والندم:

«أيتها الجزيرة الساحره المسحوره..

حتى متى أظل وحدى صامتا أبث ما أبث للأوراق

تلفحنى الأشواق

وترقد البعيدة الهانئة العينين طول ليلها مسروره

وبيننا تشهر أبحر الظلام واللظى سيوفها الصماء

من غياهب الأعماق؟

(١) السابق- ص٥٠٨، ٥٠٩.

حتى متى أظل وحدى صامتا.. وتنعم الطيور بالطيور..

والعشاق بالشعاق؟

....

الطائران اعتنقا

وخلفا لى ريشة مدوفه.. وخلفانى- دون قصد- مزقا!»[1].

ويقول الشاعر فى موضع آخر- من قصيدته (أغنية لوحدتى)-:

«شوارع شبرا تثير الأسى فى كيانى

فأمشى أجر التعاسة فيها

أجر حطام الأمانى

أجر رماد السنين، وظلا كريها

أجر الفراغ.. وحولى زهور الأغانى

يكاد الندى يزدريها»[2].

-«وعند انتصاف النهار أفيق

على صوت يأسى العميق

فأسخر من وهم قلبى

لأن الخريف يلف سنين حياتى

ويبقى على ذكريتى

لأذكر حبى!!»[3].

هكذا تحول الحب من مخلص ومجير إلى عبء ثقيل ينوء به كاهل الشاعر حتى

(١) السابق- ص١١٩.

(٢) السابق- ص٦٧١.

(٣) السابق- ص٦٧٣.

كان يعجز عن تحمل تباعت ضياعه بعد كل ما علق عليه من أمل ورجاء:

«ما أقسى أن ينسانا الحب

أن يهجر دنيانا

أن ننسى دفء القلب

أن نحيى الأحزان

فى ليل الجدب

وندوس على أمل.. كانا

قد كنت أقول

ما أقسى أن يمشى الإنسان إلى الظلمه

قد كنت أرى هذا حتى وأنا فى النور

والآن أقول

ما أحلى أن يمشى الإنسان إلى الظلمه

قلبى مقهور»[1].

كما تطل تلك الروح المعذبة لهذا الشاعر اليائس فى قوله:

«جليد غامض قاس

تناثر فى سكون الليل من شيخوخة القمر

على قلبى، وحطم ما تراءى فيه من شجر

فزاد لهاث أنفاسى

غريباً سرت ترعب وحدتى فى الليل أشباح

فأنت هدمت جسرا بيننا، روحاً أثيريه

(١) السابق- ص٦٢٣.

فناء القلب ثم عرته أتراح
وصرت أغوص فى أبد من الضجر
يشل الغنوة الخضراء والدنيا الربيعيه
ويتركنى لظل من نحيب فى زوايا الروح يرتاح»[1].

ويتردد المعنى ذاته فى قوله:

«قلبى يسير مع السنين على شواطئ من ضجر
تتثائب الأحزان فيه.. ولا تنام
وهناؤه العبق انتحر
ليعود وهما فى يدى مفتتا مثل الحطام»[2].

إن ظهور مثل تلك (المنولوجات الداخلية) وتكرارها عند الشاعر يشير إلى أن هذا الشاعر ساقط لا محالة فى داخل دائرة ذاته المشتتة المنكسرة، وهو ما سيجعل من تقوقعه بداخل ذكرياتها المرة أمراً حتمياً لن يستطيع الشاعر معه أن يتخلص- ولو ظاهرياً- من براثن العذاب والألم:

«بأجنحة الذكريات أرفرف رغم احتشاد الصحاب جوارى
وحين أرفرف حتى العياء، ويعتصر الروح جوع مقدس
ويمتزج الحزن بالليل وحشين يشتركان معاً فى حصارى
أرى شفتيك على الأفق تبتسمان وألمح نبع المنى يتنفس
فأذكر تاريخ قلبى وأذكر كيف عرفتك أول مره»[3].

ويتكرر المعنى ذاته فى موضع آخر

«أطل على من آفاق روحى بلبل محزون
وعرانى من الأفراح والأنسام فى الظلمه

(١) السابق- ص٦٨٣.
(٢) السابق- ص٦٧٠.
(٣) السابق- ص٣٥٦، ٣٥٧.

وغنى فى ذهول قاتم موهون

غناء دامع النغمه

فأشعلنى الجوى القاسى.. وعذبنى

وصرت أبوح من شجنى

ومن كمدى.. بحب عاصف مجنون

يطاردنى

وحين صحت- معفرة- مع الذكرى رؤى الماضى

ذكرت حنانك الدفاق فى نفسى وفى أمسى

فعدت لنبش أنقاضى

ليمضي موحشا قلبى، وتنبت زهرة اليأس»[1].

كما تتردد أيضاً صورة هذا البلبل العائد بذكريات الشاعر من ماضيها السحيق فى قول الشاعر:

«بلبلى طائر فى مدى ذكرياتى

فى حنايا حياتى

علها تستعيد صدى عابرا

من رؤى أمنياتى»

-« ما الذى قد جرى..؟!

احترقت أسى وانكسرت مرارا

صار حبى بوارا

غاب تحت الثرى...»[2].

هكذا يكون الشاعر قد أدرك الأمر على حقيقته، فالحب قد مات ولا ترجى فائدة

(١) السابق- ص٦٨١،٦٨٢.

(٢) السابق- ص٦٩٤، ٦٩٥.

من وراء هذا التذكر المرير الذى لن يجلب إلا مزيداً من الأسى والألم، ولذلك فهو يتوجه إلى حبيبته بهذا الخطاب التقريرى 'اليائس:

«انتهينا يا صديقه

وتلاشت خضرة الأحلام فى الليل العبوس

انتهينا.. وعرفنا كيف تطوينا الحقيقه

كيف تطوى فى يديها كل أحلام النفوس

انتهينا يا صديقه

وأفقنا من هروب الروح للذكرى الغريقه

بعد تحطيم الكؤوس

من شتاء الروح يا أخته قولى كيف نهرب؟!

حبنا صار رمادا فى النهايه

صار نبعا للشكايه

صارت الأنجم أقرب

من أمانينا، ومن دنيا هوانا»

«انتهينا يا صديقه

انتهينا.. انتهينا

دق ناقوس الحقيقه

يا زمن

أنبئ الروح الغريقه

فى الشجن

أن عصف الريح أقوى

من أغانينا الرقيقه

أن ما نلقى.. ونهوى

يتوارى

فى متاهات سحيقه

فى الصحارى»[1].

ثم يمضى الشاعر نحو قمة الشعور باليأس والحسرة والندم عندما يصدر منه ما يشبه الندب، فهذا الحب قد غاب ومضى بغير أمل فى استعادته، وقد تجسد ذلك فى قصيدته (كان فجراً) التى قام فيها الفعل الماضى (كان) بدور رئيسى فى توضيح هذا المعنى وتأكيده:

«كان فجراً مس قلبى بالمنى ثم انطوى

كان فجراً يترقرق

بالأغانى

كان فجرا من صفاء وهناء وهوى

كان رؤيا تتدفق

فى كيانى»[2].

-«ثم ماذا قد تبقى من جذوره..؟

لم أعد أمشى بروح حالمه

لم أعد أحظى بنوره

فى حياتى القاتمه

ثم ماذا قد تبقى من جذوره؟

غير دنيا مثقله

بالمآسى المعوله

(١) السابق- ص٦١٢- ٦١٤.

(٢) السابق- ص٥٩٦.

عشش الصمت وألقى فى مداها ذكرياتى

ثم مد اليأس ظله

فى شتاء الروح ماتت أمنياتى

ثم ماذا قد تبقى من جذوره..؟

غير حلم ضائع أو أعنيات ذابله

وسؤال ملء روحى الذاهله:

«كيف ألقى- فى حياتى- بعض نوره..؟!»[1].

ولكن ذلك التساؤل لا ينتظر الشاعر من ورائه إجابة تضمد جراحه؛ لأن أمر هذا الحب قد حسم من قبل، وتحدد مصيره ونهايته إلى الضياع، وهو ما جعل الشعور بالأسى والعذاب يسرى بين قصائد هذا الشاعر على هذا النحو من التلقائية والوضوح والمباشرة.

وتظل قيمة عاطفة الحب برأسها لدى الشاعر (محمد إبراهيم أبوسنة) من خلال تشبثه بها بعد أن عدها رمزاً للخلاص من أحاسيس الفقد الغائرة فى نفسه.

يتضح ذلك أكثر فى قول الشاعر- نثراً-:

«لم أكن منذ فقدت أمى فى أوائل الأربعينيات أتصور الحياة بعيداً عن المرأة، ولأن الفقد قد خلف فجوة عاطفية أشبه بهذه الفجوة التى تخلفها النيازك الحارقة فى سطح الأرض فقد ظلت المرأة نيزكاً وجرحاً وأملاً»[2].

كما يتضح ذلك أيضاً من خلال عدة نماذج شعرية، منها على سبيل المثال قصيدته «غزلية»[3]، وأيضاً قصيدته «الجفاء» التى يقول فيها:

«بدون مقلتيك يا حبيبتى.. لا آمن الطريق

بدون لمسة اليدين عندما أكون فى الفراش

بدون ساعديك يورقان تحت رأسى الكليل

(١) السابق- ص٥٩٦، ٥٩٧.

(٢) الشاعر والتجربة (شهادات) إعداد وتقديم د/ محمد عبدالمطلب- ص٢٦٢.

(٣) الأعمال الشعرية- محمد إبراهيم أبوسنة- ص ٢٠٨.

فأعرف النعاس فى حدائق القمر

ويسكب المطر

وعوده الخضراء للنبات»

-«بدون سمعك القريب من فمى

لا أبدأ النشيد.. لا أتمه

يفر من لسانى الغناء

أغوص فى رمال هذه الكآبة السوداء»[1].

وتظهر قيمة هذا الحب عندما يرمز الشاعر إليه برمز يدل على البراءة والطهارة، وهو (الطفل)، مع الاحتفاظ لهذا الرمز بكل ما يتحمله من إيحاءات تلتصق به كالحماية والحفاظ عليه؛ نظراً لقلة الخبرة، وانعدام التجربة. وهى الإيحاءات التى أدى عدم الالتفات إليها إلى وأد هذا الحب (الطفل) وإجهاضه:

«لا تقولى حبنا

فالذى كان شقيقاً للسنا

والذى كان نحيلاً كالضنى

والذى كان خجولاً يحمل الضوء لنا

والذى فك يدينا

وأنارت مقلتاه درينا

لم يكن حبك بل حبى أنا»[2].

يسيطر الفعل الماضى، ويطغى على هذه المقطوعة؛ ليعكس رسوخ وجثوم هذا الزمن الذى ضاع فيه الحب إلى الدرجة التى لن يرجى من ورائها استعادته؛ لأنه قد مات بالفعل؛

(١) السابق نفسه- ص٤١١، ٤١٢.

(٢) المصدر السابق- ص٦٤٩، ٦٥٠.

لأنه لم يجد الرعاية والعناية التى يستحقها. وهنا يتوجه الشاعر إلى حبيبته بهذا الأمر الصارم:

«فدعيه فلقد جاء بلا أم وحيدا
لم يكن يملك فى جعبته إلا نشيدا
وتمناك له أما لكى يبقى سعيدا
فتوليت بعيداً ولقد راح بعيدا
. . . . . .
لم تمدى للذى يغرق لحنا أو يدا
وبكى الطفل إلى أن أجهدا
لم يكن غير ذراعى وسدته المرقدا»[1].

وإلى هنا يلقى الشاعر بالمسئولية كاملة على الحبيبة التى لم تحط الحب بالرعاية والصيانة اللازمتين له، فمات هذا الحب، وتفلت من بين أيديهما.

ولكن يظل لسذاجة الشاعر وقلة خبرته الدور الأكبر فى إهدار هذا الحب، والقضاء عليه:

«أى الكلمات لديها القدرة أن ترثيك
يا قلبى الميت
يا قبر الأشرعة العائدة من البحر
يا أغنية ترقد تحت الأحجار
يا أم القيثار الصامت
قد مات العازف فى مطلع لحنه
ما كنت بصيراً فى أمر الحب
ولذلك لم تنهض من أول عثره»[2].

(١) المصدر السابق- ص٦٥٠.
(٢) السابق- ص٤٧٠، ٤٧١.

هكذا بدا الشعور بالحزن والندم مسيطراً على هذا الشاعر الذى لم يكن «بصيراً فى أمر الحب»؛ ففقده وضاع منه.

وقد تكررت أيضاً ملامح هذا المعنى فى قصيدة أخرى للشاعر، يقول فيها:

«كذب.. ما كان الحب لينقذ من طيش الموج سفينة
ما لم تصحبه الحكمة
يا ملاح الحب الساذج»
«لو كنت قوياً كالسارية المرتفعة
ما مالت سفينتك يا ملاح الأحلام»[1].

وعلى ذلك فقد أصبح لزاماً على ملاح الحب الساذج أن يتحمل نتيجة سذاجته وانعدام خبرته؛ بأن يذبح أحلامه البريئة بيديه:

فلتذبح أحلامك قبل الميناء
فوق الحجر الممسوخ الأسود
ما عاد لرحلتك الحمقاء بقية
جنت ريح الليل»[2].

لقد بلغ الشاعر قمة الشعور بالعجز والانكسار بعد أن قذفت به تجربة الاحتكاك المباشر بالواقع إلى عوائق العامل المادى الذى تدخل بشكل حاسم فى عملية وأد الحب، وإجهاضه.

وقد اتضح ذلك بصورة واضحة ومباشرة فى قصيدة الشاعر «ما أقسى برد الليل» التى يقول فيها:

«ما أبهظ ثمن الحب
فى عصر الثلاجات»

(١) السابق- ص٣٦٧، ٣٦٨.
(٢) الأعمال الكاملة محمد إبراهيم أبو سنة ص٣٦٩.

-«حين رفعنا أقدح اليوم الأول

جاء حساب الملكين

المسكن.. صوت يصرخ أين؟

الثلاجة؟.. حجرة نوم لائقة باثنين؟

البسط الإيرانية؟

وأرحنا طفل ليالى القمر الوردية

فى مقعد جارتنا

ونسيناه

ونهضنا.. المسكن.. والثلاجة.. والحجرات

ونعد المليمات

حين تذكرناه

عدنا فوجدناه

مختنقاً فى مقعد جارتنا

ما أقسى برد الليلة»[1].

لقد ذوى غصن الحب، وغاض منه مء الحياة؛ لأحوال العصر المادية التى تكلف الشاعر المحب ثمناً مادياً باهظاً لا يستطيع لوفاء به؛ ومن ثم يكون انفراق بين الشاعر وحبيبته أمراً منطقياً ومحتوماً. وهنا يتوجه الشاعر إلى حبيبته بقوله:

«دعيه فى الكفن

ممداً على أريكة العذب

فها هنا ولد

وها هنا انتهى»

(١) المصدر السابق- ص٣٨٣-٣٨٥.

-«وكل ما أتاه من آثام

فنحن فاعلوه

أنا وأنت المذنبان

لكننا سقناه نحو ساحة الإعدام»[1].

لقد تغير الحال إذن بعد أن صار الشاعر أكثر خبرة بالحب ومسئولياته، وأكثر احتكاكاً بالحياة الواقعية؛ لذلك بدا الشاعر أكثر موضوعية؛ فلم يحمل حبيبته وحدها مسئولية إجهاض الحب ووأده، بل حمل نفسه أيضاً قدراً من تلك المسئولية؛ يتضح ذلك من الحوار الذى أداره الشاعر مع حبيبته فى قصيدته «فى محطة القطار»[2] والتى اختتمها بقوله:

«والجثة التى تشيع الارتباك

تكشفها الرياح للعيون

وكل هؤلاء يعرفون

بأننا الجناة

فهل نلوذ بالفرار؟؟»[3].

إن الشاعر يختتم قصيدته بهذا الاستفهام الماكر الذى يحمل بين طياته كل أطراف الإجابة؛ لأن الحب كان قد حسم أمره من قبل؛ فقد «مات إثر حادث مريب»[4].

لذلك كان تساؤل الشاعر نابعاً من شعور مضن باليأس لن يترك للشاعر وحبيبته غير خيار الفرار والهروب. ولكن هذا التساؤل قد حمل بين طياته أيضاً عدم قدرة الشاعر على تصديق فكرة أن الحب قد مات. ومن ثم فقد عدل عن أسلوبه الخبرى إلى هذا الأسلوب الإنشائى المتمثل فى هذا الاستفهام. وكأننا بالشاعر يرفض هذا التصور، ويلقى على حبيبته مسئولية تصديق هذا النبأ الفاجع، والنطق به.

(١) انظر السابق- ص٣٦١- ٣٦٣.

(٢) السابق- ص٢٦٠.

(٣) المصدر السابق- ص٢٦٢.

(٤) السابق- الصفحة نفسها.

ويبدو أن الشعور المستفحل بالأسى والندم قد دفع الشاعر إلى هذا النوع من التساؤلات التى تكون فى كثير من الأحيان أسئلة عن إجابات مقررة سلفاً. ومثال ذلك هذا «المنولوج الداخلى» الذى يوجه فيه اللوم والتأنيب إلى نفسه؛ لتمديه فى الحب على الرغم من علمه بأنه محكوم عليه مسبقاً بالفقد والضياع:

«لماذا تماديت فى الحب حتى احترقت؟

وتعلم أن الوفاء جنون قديم

وأسطورة يتلهى بها العابثون

وتمضى الأشعة نحو الظلام

ويبقى الندم

غذاء الليالى الطويلة

وسم الأمانى الجميلة»[1].

إنه نوع من جلد الذات، وتأنيبها بعد أن أملت حياة الحب، وآمنت به قبل أن تكتوى بنيران فقدانه وضياعه:

«حسرتك لا شىء باق يجيد العزاء»

- فما كنت أعلم أنى إذا ما فقدتك

فإن فؤادى ستثقبه إبر محرقة

لتدخله من جميع الجهات الرياح»[2].

أما الحب عند الشاعر (عصام الغازى) فقد كان شديد الالتصاق بذاته؛ لم يفارقه فى أوج انتشائه أو فى أسوأ لحظات انكساره:

«ومنذ أن تبعثرت فى الليل حظوتى

(١) المصدر السابق- ص٢٩٢.

(٢) السابق- ص٣٧٥، ٣٧٦.

وحل بى انكسارى

يعودنى فى الليل حلم واحد

عيناك يا حبيبتى

عيناك!»[1].

إن الشاعر يحلم بلقاء عينى حبيبته بعد أن عجز عن تحقيق هذا اللقاء فى دنيا الواقع، وتتكرر ملامح هذا الحلم فى موضع آخر من قصيدة الشاعر «داخل دائرة الحلم» التى يقول فيها:

«أحلم يا حبيبتى بأننا معاً

فى شارع طويل

وحولنا الطيور والأقمار والنخيل

تعانقت ظلالنا!

يلف معطفى أكتافنا معاً..

حبيبتى

كأننا فى الليل نجمتان

فى عيون ساهده

أو نخلتان تطلعان

من جذور واحدة

أو همستان تورقان

فى شفاه واعده

أحلم يا حبيبتى بأننا معاً..

(١) الجياد تموت واقفة - شعر - عصام الغازى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ٢٠٠٥ - ص١٥٦.

obeikandi.com

وسوف نبقى دائماً

معاً.. معاً»[1]..

هذا الإلحاح من الشاعر على هذا الحلم يفسر ما عقده الشاعر على هذا الحب من أمل في انتشاله من مشاعر التيه والقهر والحرمان التي يتجرعها في واقعه المادي المعاش:

«عيناك يا فريدتي

مدينتي الجديده

وزورقاي الفاتحان

وشطئ عليه أنسى غصة الهوان

عيناك في ليالي التيه.. مشعلان

وفي أتون القهر.. جنتان»[2].

ولكن ظهور مفردات الانكسار والهوان بين طيات هذا الحلم تدفعنا إلى تجاوز حدود هذا الحلم الظاهرة: إذ لابد من تجاوزها؛ حيث يبدو هناك ما أخفاه هذا الشاعر وراء هذه الأحلام من إخفاقات حاول أن يتخلص منها عن طريق التشبث بالحب؛ فهو ما فتئ يعلن عن قيمة الحب وأهميته لديه:

«بعيون الحب تخضر رؤانا

كالعراديس استحمت في الظلال

وعيون الحب أقمارٍ ونشوى

وعصافير وذكرى وخيال

كيف نحمي الرعشة الظمأى بنا

ونرى الدنيا بأهداب الحياء

(١) السابق – ص١٧٩، ١٨٠.

(٢) السابق – ص٢١٥.

كيف يبقى الحب فى داخلنا

زهرة تخضر.. وشعاعاً يضاء؟!»[1].

إن الشاعر ينهى قصيدته بهذا الاستفهام المتعجب والموحى فى آن معاً؛ إذ إنه يشى بإحساس داخلى يعكس تشكك الشاعر وانعدام ثقته فى الاحتفاظ لهذا الحب برونقه وصفائه، ولعل تساؤلاً آخر للشاعر ورد فى قصيدته (اغتراب) يكشف جانباً هاماً من علة هذا التردد والتشكك الذى بدا على الشاعر؛ حيث يتوجه بهذا التساؤل مباشرة إلى فاتنته:

«قولى..

هل يعشق قلبك إنسان مطحوناً

بالفقر وبالإرهاب»[2].

هكذا يكون الشاعر قد أعلن بكل وضوح عن ضعفه وعجزه لأنه ببساطة إنسان طحنه الفقر والإرهاب، كما تتدخل قصائد أخرى للشاعر لتفصح عن سر تشككه فى عدم قدرته على القيام بحق هذا الحب الغالى من التعهد والرعاية:

«يا لعينيك التى تأكل قلبى!

يحتوينا المعطف الصيفى فى ركن الحديقه

علنا ننسى تباريح الحقيقة

تطلبين الخاتم الماسى فى همس رقيق

وأنا أحمل فى جيبى قرشين بريئين

لعقد الفل فى الجيد الأنيق!»[3].

إننا عندما نصنع «الخاتم الماسى» – الذى تطلبه الحبيبة - بإزاء «عقد الفل» - الذى يملك الشاعر ثمنه فقط – ندرك أن فقر هذا الشاعر وقلة إمكانياته المادية كانت

(١) السابق – ص١٣٢.

(٢) السابق – ص٤٩.

(٣) السابق – ص١٢٦.

هى العائق الأكبر الذى وقف وراء ضياع حبه كما يذهب الشاعر فى مصارحته لحبيبته إلى ما هو أبعد من ذلك؛ حيث نسمعه يقول فى قصيدة أخرى:

«حبيبتى.. أنا حزين

لأن سترتى حزينه

فتشت فى جيوبها

فلم أجد سوى حجاب

وعلبة فيها ثقاب»

- «فكيف يا حبيبتى سأدفع المهرا؟

نعلى مرتق .. وجوربى لو تعلمين

حبيبتى.. لنفترق

إنى حزين»[1].

هكذا إذن كان الفقر وراء تحطم الحب، وهو ما جعل الفرصة مهيأة لمشاعر القهر واليأس لتنقض على الشاعر، حتى تتملك زمامه وتسيطر عليه بعد أن أفقدته صوابه وزعزعت ثقته بنفسه وأودت باتزانه:

«حبنا المحطوم دق اليوم بابى

لم يكن فى حجرتى إلا سرابى

قلبى العارى، وجسمى، واضطرابى

حبنا المحطوم نادانى باسمى

أنا لا أذكر اسمى

أنا لا أعرف منى

(١) السابق - ص١٤٧، ١٤٨.

غير تذكار حزين.. فى ثيابى!»[1].

كما شغل الحديث عن الحب مساحة واسعة فى شعر (خليل فواز)؛ يبدو ذلك فى الدواوين التى وقفها الشاعر على الحب وأهميته وأسباب ضياعه من حياته، مثل دواوينه «الغرفة الخالية»، «رفقاً بقلبى» و«وجه الحب القديم»، «قلبى أنا».

والناظر فى نتاج هذا الشاعر العاشق يجد نفسه مطالباً أن يكون فى غاية الحذر؛ حتى لا ينزلق فى وهدة الخلط بين موضوع البحث، وبين النزعة الرومانسية التقليدية التى لا تعبر عن مشاعر صادقة صادقة بقدر ما تعبر عن نزعة تقليدية لا تخرج عن إطار الحديث عن صد الحبيب، وآثار هجرانه- الذى قد يكون مفتعلاً- على نفس الشاعر؛ خاصة وأن هذا الشاعر «عاش فى الفترة ما بين ١٩٤٢ و١٩٩٤ وهى الفترة التى شهدت امتداد الاتجاه الوجدانى والإبداعى العاطفى المتمثل فى جماعة (أبولو) التى أنشأها أحمد زكى أبوشادى فى سبتمبر ١٩٣٢»[2]. وهناك سبب آخر يدعو الباحث إلى توخى هذا الحذر. وهو أن هذا الشاعر كان يعيش حياة عاطفية وأسرية سليمة ومستقرة؛ خاصة وأنه قد أهدى أغلب دواوينه إلى زوجته السيدة (أسمهان توفيق): «إلى زوجتى مع حبى»[3]، «إليها فى كل زمان ومكان»[4]، «إلى من عرفت معها الحب بحلاوته ومرارته»[5]، «إلى التى احتوتنى بسرورى وحزنى وجنونى.. إلى أ.ت.ع معى حبى. وقد صور الشاعر فى دواوينه كل مراحل حياته معها منذ أن كانت محبوبته حتى صارت أما لأولاده وعزا إليها الفضل فى ذاتيته وشاعريته»[6].

لذلك كان التركيز منصباً على عدد من النماذج التى تحريت فيها أصالة الشعور الناتج عن صدق العاطفة، وصدق التجربة كذلك يقول الشاعر مخاطباً حبيبته، ومستعطفاً إياها:

---

(١) السابق - ص١٤٥.

(٢) المجموعة الكاملة لأشعار خليل فواز- المجلد الأول- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠١- ص٨.
ص٨.

(٣) المصدر السابق- ص٣٧.

(٤) المصدر السابق- ص١٢٣.

(٥) السابق- ص١٩٩.

(٦) المصدر السابق- ص١٣.

«تعالى.. فقد عشت قبلك عمراً.. كئيبا.. وطال على القدم
أحلق فى ظلمات الفناء وأسبح فى ذكريات العدم!
تجرعت كأس الفراغ.. تعلمت.. .. معنى الضياع.. ومعنى السأم!»[1]

عند النظر إلى كلمة (تعالى) نجدها تكررت فى هذه القصيدة (اثنتى عشرة مرة). وهو ما يعكس الرغبة النفسية الملحة التى تكمن فى تعلق الشاعر بهذا الحب، وتمسكه به، وطلب سرعة استقدامه؛ لقدرته على انتشال الشاعر من براثن الضياع والعدم والأسى والألم. وهذا المعنى ذاته يتكرر أيضاً فى قصيدة أخرى، ولكن فى تلك المرة يبدو أن الشاعر كان قد عثر فعلاً على هذا الحب:

«ولولا شعاع من النور لاح لعينى.. سقطت إلى الهاويه!
دخلت حياتى.. وكنت نجاتى فمنعم الحبيبة والهاديه!
ندمت على العيشة الماضية وأمنحك العيشة الآتيه!»[2]

لكن يبدو أن هناك إعاقة قد اعترضت حياة هذا الحب، وألقت به فى مهاوى الفقد والضياع. هذه الإعاقة لا تحمل الحبيبة المسئولية عنها وحدها. بل إن هناك أسباباً ومقدمات أخرى أودت بالحب فى مهاوى هذا الضياع التام. وقد عمد الشاعر إلى الإلماح إلى تلك الأسباب والمقدمات فى صراحة بينة فى قصيدته «قالت وقلت» التى استخدم فيها أسلوب (المنولوج الخارجى) ليدير من خلاله الحوار بينه وبين حبيبته:

«قالت.. فإن الحب لا يكفى تكاليف الحياة.. فقلت فى إقناعها!
الحب أثمن من ثمين كنوزها الحب أغنى من غنى ضياعها!
فالشمس تبعث للجميع سناً.. ولم تبخل على أحد بدفء شعاعها!
والأرض تعطى خيرها لغنيها وفقيرها ما دام من زراعها!»

ويظل الشاعر يسوق الحجة بعد الحجة لإقناع حبيبته بالإبقاء على هذا الحب الثمين، وعدم تفريطها فيه. وهنا يبدو صوت تلك الحبيبة، وقد طغت عليه نبرات الجدال، وعدم الاقتناع بكلام الشاعر المحب:

(١) السابق - ص٤٣.
(٢) السابق - ص٢٧٥.

«قالت أتزهد فى الحياة فقلت بل ... أجد الكفاية فيك خير متاعها!
قالت.. فإن النفس لا ترضى بما ... تلقى.. فقلت حذار من أطماعها!»
-«قالت ففيم العيش.. قلت لغاية ... تسمو على الدنيا بكل متاعها!
للحب.. للإبداع.. للقيم التى ... تبقى وراء النفس بعد ضياعها!
قالت.. أبعد الموت توعدنى المنى ... لا تفطم الأطفال قبل رضاعها!
فى قمة الدنيا تربع غيرنا ... وأنا وأنت من الحياة بقاعها!»

وهكذا تكون تلك المحاورة قد وصلت إلى طريق مسدود بعد توجيه الحبيبة عبارات اللوم والإهانة إلى الشاعر الذى عجز عن الوفاء باحتياجاتها المادية الملحة، وعاش لمثله ومبادئه التى لم تعد تغنى شيئاً فى هذا العصر المادى الذى لا يعرف غير لغة المال:

«قالت.. فقل ما شئت.. لست نبيها ... أنت ابنها المقروح من أوجاعها؟!
تنأى عن الدنيا بكل متاعها ... إنى أراك خرجت عن إجماعها؟!
تسمو على الدنيا وأنت صريعها ... من بعد ما طحنتك فى إدقاعها؟!
الناس فى سوق الحياة مباعة ... ما زاد شاريها على بياعها!
وأنا ابنة الدنيا بكل جمالها ... مهرى سرى فرضاً على مبتاعها!»

وهنا يهم الشاعر بصفع حبيبته بعد أن اتهمته بالفشل:

«قالت فشلت.. فقلت إن قصائدى ... تترنم الدنيا على إيقاعها!
وتملكتنى رغبة مجنونة ... فى صفعها.. وفزعت من إفزاعها!
.. وبكت.. فزالت للبكا أصباغها ... وبدت حقيقتها وراء قناعها!»

ومع تكشف تلك الحقيقة يصير الحب إلى نهايته المحتومة من الاختفاء والضياع. ولكن على الرغم من منطقية تلك النهاية المحتومة فإن الشاعر لا يخفى شعوره الحاد بالندم الذى لحق به؛ لتفلت هذا الحب من بين يديه:

«قالت فدعنى.. قلت لا أقوى على ... ترك التى أصبحت من أشياعها!
وتعلقت أذنى بطرف لسانها ... فى كلمة.. وتهيأت لسماعها!
وتململ القلب الحزين بأضلعى ... بالرغم مما فيه.. خوف ضياعها!
قالت كرهت.. فأظلمت لسماعها ... عين تأهب دمعها لوداعها!»[1]

(١) انظر الأعمال الكاملة لأشعار خليل فواز ص٢٢١-٢٢٧.

هكذا ظهر الشاعر فى صورة المحب الذى لم يكن يبغى من الحياة غير هذا الحب، فى حين ظهرت محبوبته فى صورة المرأة المادية التى ترى أن الحب لا يكفى تكاليف الحياة، ولا يحقق متطلباتها المادة. لذا وأدت الحب، وطعنته فى مقتل.

وإذا كان الشاعر فى القصيدة السابقة لم يبد شيئاً من التماسك والصلابة فى مقاومة الشعور بالإحباط الذى اجتاحه مع ضياع الحب- فإنه فى قصائد أخرى يظهر قدراً من هذا التماسك مستخدماً فى سبيل ذلك نوعاً من التبرير المنطقى: -

«أحبك؟! هل أنكرت يوماً محبتى؟ ولكن خصال فيك زادت عن الحد!»[1]

كما يلوح أيضاً هذا التبرير المنطقى فى قوله من قصيدة أخرى:

«إنى أحببتك لا أنكر لكن رحيقك لا يسكر»[2]

تتحمل هذه المحبوبة المسئولية كاملة عن وأد هذا الحب. ولكن هل تخلص الشاعر من تبعات فقدان حبه؟

الحق أن النماذج التى سبقت، والتى ادعى فيها الشاعر قدراً من التماسك والصلابة أمام فقدان حبه لم تخل من اعتراف الشاعر صراحة بأنه ما زال يبقى على تلك الحبيبة التى رحلت من عالمه، وأجهضت الحب بداخله.

وقد اتضح ذلك من قول الشاعر- فى نموذجه الأول-: «أحبك؟! هل أنكرت يوماً محبتى»- ومن نموذجه الثانى: «إنى أحببتك لا أنكر». ولذلك فإن هذا الحب لم يكن تجربة عرضية فى حياة الشاعر، ولكن كان تجربة عميقة استحقت أن يفسح لها الشاعر هذا الجانب الكبير من شعره، وأن تتردد أصداء إجهاضه، وتتناثر فى نفسه بعد أن جرت عليه مشاعر طاحنة أفقدته الإحساس بجمال الحياة بعد أن تساوت لديه تلك الحياة بالموت:

«أيهزم ذكراك قلبى وحبك رغم جراح الأسى ما انهزم؟!
وكيف.. ووجهك ما غاب عنى برغم الغيوم.. كبدر أتم؟!
نعم سوف أحيا.. ولكن بقلب.. .. يموت.. لجرح به ما التأم!

(١) السابق- ص٣٠٤.
(٢) المصدر السابق- ص٣٥٦.

سـأحيا.. ولكـن لأمضـغ حزنـي ... وأجـرع دمعـي.. بكـأس النـدم!
شـعوري ضـياع.. وقلبـي شـتاء ... وروحـي رمـاد.. ونفسـي ألم!
يـراود سـحر الجمـال عيـوني ... ويخفيـه عنـي ضـباب السـأم!
ويعلـو نـداء الحيـاة بسـمعي ... ولا يسـتجيب فـؤادي الأصـم!
أعاتـب نفسـي.. إذا مـا نسـيت ... أعاقـب وجهـي.. إذا مـا ابتسـم!
سـأحيا.. ولكـن.. سـأحيا برغمـي ... بقـائي فنـاء.. وجـودي عـدم»[1]

بضياع الحب يتساوى عند الشاعر البقاء والفناء، والوجود والعدم؛ فحياته صارت جحيماً مطبقاً لا يمكن تحمله. وذلك ما دفع الشاعر إلى مهاوى هذا التمنى السحيق؛ بتقديم كل ما تبقى من عمره قرباناً وثمناً لعودة أيام الحب الماضية أو حتى لمجرد عودة لحظة واحدة منها:

«فيـا ليـت أيامنـا الماضـية ... تعـود ولـو لحظـة هانيـه
ولـو كـان عمـري بهـا ينقضـي ... لكانـت لبهجتهـا كافيـة»[2]

إن الشاعر يعلم جيداً أنه يتمنى المستحيل؛ وأن أمنياته اليائسة لن تعيد الحب الذى رحل من عالمه بدون رجعة، وتركه نهباً للتحسر والندم والألم. وهو ما أوقفه على شفا تلك المقايضة المرة:

«لـئن يرجـع العمـر الـذى مـر ثانيـاً ... فلن يرجع الحب الـذى صـار ماضيـاً!
فمن يسكن القلـب الـذى بـات خاليـا ... ومن يملؤ العمر الـذى صـار خاويـاً؟!
ومـن يشـترى عمـرى إذا كـان باقيـا ... بيوم من الحب الـذى ضـاع غاليـا؟!»[3]

ثم تبدو مرحلة اليأس التام فى الأفق؛ لتسلب الشاعر إحساسه بنبض الحياة من حوله. وذلك يتبين عندما يواجه الشاعر حبيبته بقوله:

قطعـت كـل شـعور كـان يربطـه ... بكـل شـيء.. ومـا فى القلـب يكفيـه!
لا شـيء يطلبـه.. لا شـيء يعطيـه ... لا شـيء يسـعده.. لا شـيء يشـقيه
لا شـيء ينقصـه.. لا شـيء يكفيـه ... لا شـيء يرغبـه.. لا شـيء يغريـه

(١) المصدر السابق- ص٩١، ٩٢.
(٢) السابق- ص٧٨.
(٣) المصدر السابق- ص٢٨٢.

غاب الشعور الذى كم كان يسعده فغاب كل شعور آخر فيه!![1]

هكذا تكررت (صيغة النفى) بكثافة؛ لتعكس مدى الاستبشاع الشامل للحياة، والإحساس الساحق بالفقد الذى جره على الشاعر شعوره الحاد بالعذاب والألم الذى منى به بعد أن ضاع الحب منه إلى غير رجعة.

كما يبدو الشاعر (محمد مهران السيد) أشد صلابة، وأكثر موضوعية فى مواجهته الإحباطات التى خلفها ضياع الحب منه من خلال رفضه الإعلان عن التدم على ما بذله فى سبيل هذا الحب المجهض من تضحيات لم تعها حبيبته، فأضاعت الحب، وأغلقت قلبها دونه:

«لا أستطيع أن أزور الوثيقة القديمة
وأرفع العقوق راية.. كما فعلت
وأنكر الذى أظلنا معا
أنا، وأنت»
-«لا أستطيع
.. ولو تركت عارياً بلا ثياب
على مسطح الصقيع
ولو نزفت، قطرة فقطرة.. على أسنة
الحراب
لا أستطيع أن أداوى الجراح.. بالكذب
إذا أردت أو أردت.. أن يكون بيننا حساب»[2].

ولكن على ما يبدو أن هذا التماسك الذى تحلى به الشاعر لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما نلاحظ تراجعاً ملحوظاً فى موقف هذا الشاعر الذى أعلن فى غير موضع مَنّ شعره عن تشبثه

(١) المصدر السابق- ص٢٣٠.

(٢) عمر من الوهم الجميل- محمد مهران السيد- ط١- الهيئة العامة لقصور الثقافة- ٢٠٠٠- ص٥٣، ٥٤.

وانهياره أمام حبيبته التى رحلت عنه، وتركته نهباً لهذا الاستفهام المضنى الذى يكاد يفترسه:

«فكيف تكون الزهور إذا لم تحن إلى نحلها.. والندى!؟

تضيعين منى؟!

إذن سوف تمضى حياتى إلى منتهاها سدى»[1].

إنها أولى بوادر الشعور بالفقد التى ظهرت على هذا الشاعر بعد أن استخدم هذا الأسلوب الإنشائى المتمثل فى الاستفهام؛ فهو يتحايل على هذا الإحساس المضنى من خلال انتظار إجابة ترجى من وراء هذا التساؤل، يضمن بمقتضاها مشاركة وجدانية من شخص ما يؤنسه فى وحشة صحراء حبه المفقود.

ولكن هل قصد الشاعر بهذا التساؤل أن تكون الإجابة من قبل المحبوبة؛ خاصة، أنه استخدم قبل تساؤله مباشرة حرف الترجى (لعل)؟:

«لعلى.. لعلى

أصادف خيطاً يضئ المتاهة فى ليلها المشتجر

وألقى الذى يقود الضرير إلى المنتظر»[2].

وبذلك يكون الشاعر قد حقق رغبة نفسية ملحة ولو على سبيل الخيال.

يمكن القول بأن هذا احتمال وارد، ولكنه ظل يتباعد رويداً رويداً حتى تلاشى تماماً؛ يتضح ذلك من قصيدة الشاعر (بدلاً من الكذب) التى صدرها بهذا التمنى اليائس:

لو أنها قالت.. سنلتقى غداً، أو بعد غد

واعتذرت عن المجئ بعدها.. بلا سبب

لو أنها..

لقلت فى نفسى.. لم الضلال، والسؤال، والكمد

(١) المصدر السابق- ص١٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

وأن للغياب ما يبرره

وما استطاع أن يدينني أحد

لكننا لن نلتقي ولو للحظة قصيرة الأمد»[1].

إن تصدر حرف التمني (لو) لصورة المشهد لم يطمح الشاعر من ورائه إلى رؤية حبيبته، والالتقاء بها، لكنه كان يتمنى امتشاق تعلل ما يشهره في وجه تلك المشاعر المحزنة التي تعاقبت عليه بعد أن رحلت حبيبته؛ يدل على ذلك أن الشاعر أعقب هذا التمني اليائس بحرف الاستدراك (لكن) الذي يكون «ما بعده مخالفاً في الحكم لما قبله» ثم أعقب هذا الاستدراك بالنفي بـ(لن) التي ينتهي معها أي أمل في إمكانية حدوث لقاء الشاعر بحبيبته «ولو للحظة قصيرة الأمد».

وهكذا تكون آمال الشاعر وطموحاته قد دقت وتقلصت إلى درجة لا تتناسب مع تماسكه الذي كان قد أظهره من قبل، فأصبحت الفرصة مهيأة لإعلان الشاعر عن ندمه ويأسه؛ لفقدانه هذا الحب. وقد بدا أثر ذلك جلياً في صورة قاسية من صور جلد الذات التي ظهرت عند هذا الشاعر بعد أن حمل نفسه مسئولية التسبب في ذلك الفراق الذي أزهق الحب، وجعل حياته أشبه بالموت:

«وذات يوم فوجئ الصباح.. أنها مضت

تحجرت بجانبي ظلالها

وأنني أغمضت عيني إذ مضت وخنتها

وبالسنين في مسارب الخداع.. بعتها

ولن أراها مرة أخرى لأعتذر

بأنني بشر

ومنذ أن فقدتها..

أموت في النهار مرتين.. لو نسيتها»[2].

(١) المصدر السابق- ص٣١.

(٢) المصدر السابق- ص٣٢.

أما الشاعر المستشار (حسين نجم) فإننا نجده ينفذ مباشرة إلى صلب مأساته مع الحب؛ إذ نلحظ رصد الشاعر للفارق الهائل بينه، وبين حبيبته من خلال عقد لتلك المقارنة بينهما التى غلفها الطابع الاستفهامى.

«محبوبتى

يا من رأيتك جنتى..

هل تحلمين؟

هل تحرقين الليل.. مثلى.. تظمئين؟

وتصابرين الشوق.. والوجد الدفين؟»[٢].

ولكن يبدو أن تساؤلات الشاعر تلك لا ينتظر من ورائها إجابة ترجى؛ إذ سرعان ما نجده يردفها بتساؤل آخر بـ(لم) التى حملت فى طياتها وفيما أعقبها من سطور إجابة ضمنية أجاب فيها الشاعر عن كل تساؤلاته السابقة. وذلك بعد أن أسهب فى بيان الأسباب التى ستجعل حبيبته لا تلتفت إليه أبداً طالما أنها لم تعان مثله من مكابدة الشوق، ومن الجوع والحرمان العاطفى:

لم؟.. والهوى كالماء.. يسراً.. فى رحابك

وتدق كفى.. دائماً.. بالشوق بابك

... لم ترجفى شوقاً إلى قبلة

لم تشحبى لهفاً على محبوب..

... ما إن تفتح وردك اللاهى

حتى أتاك النحل.. منهوما

لم تنثرى من أجله عطراً

لم تبذلى.. فى صيده.. سحرا

(١) أغان على ضفاف العمر للشاعر حسين نجم- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٥، ص٢٢.

.. فألفت فى خطراتك الكبرا

وسجنت فى نظراتك الشعرا

وجهلت إشراق الصبابة فى القلوب

واللهفة العذراء فى لحظ رطيب

.. أنثى بغير توقد.. كاللؤلؤة

.. حسناء.. مثل اللؤلؤة

بيضاء.. مثل اللؤلؤة

.. صماء.. مثل اللؤلؤة

... لم تخفقى بالقلب تحنانا

لم تجرعى الأيام حرمانا

.. لم تصرخ الأنثى بأعماقك

كزئير وجدانى بأشجانى»[1].

لقد كرر الشاعر (لم) سبع مرات. وهو ما يؤكد أن هذا الشاعر كان «فى شك مؤلم فى أن لؤلؤته تحمل كل هذا الضنى وهذا الحرمان وهذه المشاعر التى يدفنها فى قلبه يخفيها عن الدنيا مكتفياً بعذاباته وحيداً»[2]. وبذلك يكون قد اتضح أن قلب محبوبته اللؤلؤة صخر لا يرق ولا يلين. ولذلك سيظل الفراق دائماً هو سيد الموقف بينهما:

«يا حلوة.. ما ضمنا غير افتراق ... وخيالى المحموم كان هو العناق

... فى ومضة عشت الذى أملته ... أمد الحياة وضاع أشلاء اشتياق

.. لو كان ما بينى وبينك قصة ... لجعلتها عمرى وعشت بها الفراق»[3]

ثم تطل من جديد ملامح المقارنة ذاتها التى تشعر الشاعر بضعفه وقلة حيلته أمام

(١) المصدر السابق- ص٢٢، ٢٣.

(٢) مقدمة الديوان ص١٢.

(٣) المصدر السابق- ص٢٤.

حبيبته المستعصية:

«... ما كنت غير سحابة منهوكة ... عبرت ربيعك وهو فى زهو انطلاق
.. شفتاك.. فى صمت.. نداء لفنى ... وأذاب فى قلبى جليداً لا يراق
.. لم تشعرى بالنار.. فهى سجية ... فى لحظك الرامى على غير اتفاق
.. لم تكترث عيناك بى.. ولم الحفاوة بالضياع وبالذبول والاختناق؟»[1].

إن هذا الشاعر يختلف عن شعراء سبق ذكرهم فى هذا المحور؛ فهذا الشاعر لم يذق أصلاً حلاوة الحب حتى يتجرع مرارة فقدانه؛ فقد بدا هذا الحب وكأنه محكوم عليه سلفاً بالإحباط؛ فقد أحبط هذا الحب بداخل الشاعر قبل أن يخرج إلى واقع الحياة ليختبر صلابته أو ضعفه.

لذلك بدا هذا الشاعر متردداً خائر القوى لا يجد ما يقدمه لحبيبته حتى يغريها بقبول هذا الحب؛ ومن ثم فإن إحباط هذا الحب، وضياعه سيكون أمراً منطقياً وهو ما عبر عنه الشاعر من خلال تلك التساؤلات المضنية:

«أو ليس الحب نجوى خافقين؟
ونعيماً وعذاباً.. بين .. بين؟
وسماء رفعت للعاشقين؟
والأغانى ذوبت فى همستين؟
ووجوداً غائباً فى سكرتين؟
والرؤى الغناء ملء النظرتين؟
والمنى تزهر فى طرفة عين؟
أين هذا كله.. يا قلب.. أين؟»[2].

هنا يبلغ الشعور بالألم مبلغه عند هذا الشاعر حتى يصل به إلى الحد الذى يجعل

(١) المصدر السابق- ص٢٤.
(٢) السابق- ص٣٥، ٣٦.

من مجرد البكاء واليأس غاية يتمنى الحصول عليهما، والارتماء بين أحضانها:

«يا جراح القلب يا أبقى الجراح
نبع الجرحى لم اربد الصباح
كيف رف القلب مكلوم الجناح
ضائعاً فى التيه فى هوج الرياح
ينزف الآهات.. مغلول النواح
.. كم تمنى لو بكى.. هما.. وباح
لو بحض اليأس أغفى. واستراح
هل بدا الحب سرابا.. ثم راح»[1].

هكذا تكون العوائق التى أدت إلى وُد الحب وإزهاق روحه قد تعددت أشكالها؛ فمنها ما هو راجع إلى الحبيبة النزقة، ومنها ما هو راجع إلى سذاجة لشاعر، وقلة خبرته بأمر الحب، ومنها ما هو راجع إلى الظروف المادية التى تعجز الشاعر عن كفالة هذا الحب، ومنها ما هو راجع إلى الشريك المنافس الذى يحل محل الشاعر فى قلب حبيبته، ومنها ما يرجعه الشاعر إلى قوى قدرية كبرى لا قبل له بمواجهتها.

وفى كل هذه الأحوال كانت النتيجة محسومة فى إجهاض الحب، وموته، لذلك كان الشعور بالعذاب والألم نتيجة منطقية لضياع هذا الحب، وافتقاده.

(١) السابق- ص٣٥.